Majallah Al-Qism Al-Arabi
University of the Punjab,
Lahore - Pakistan.
No.28, Issue: 2021

مجلة القسم العربي
جامعة بنجاب، لاهور– باكستان.
العدد الثامن والعشرون، 2021م.

المناسبة بين الآيات والسور في التفسير المحمدي للشيخ حسن بن أحمد الكجراتي (م982هـ)

Mutual Connection in Quranic Verses and Surahs in the Commentary of Sheikh Hassan bin Ahmed Gujrati (died 982H)

حافظ مُحَمَّد ألطاف
المحاضر بقسم اللغة العربية، جامعة بنجاب،
لاهور

Abstract

The Holy Quran is ALLAH's word to mankind. It contains many aspects of miracles. Some of the Muslim scholars revealed that these aspects are laid in beautiful and wonderful selection of words, phrases and sentences and its charming mutual connections of verses, which proves that it is the word of Allah, not of a man. Therefore, the Muslim scholars paid attention to this aspect in their commentaries of the Holy Quran . This article discusses the meaning and significance of mutual connection of verses as it highlights some of the scholars who gave importance to this aspect. The article basically focuses on the work of Indian-muslim scholar Shaikh Hasan Ibn Ahmed (died 982 H) in this regard. He composed a brief documentary of the Holy Quran focusing on mutual connections of verses. He thinks that no scholar had done it before him. As this article describes the

method chosen by author in his documentary and gives some examples from his work. It's a great work for lovers of Arabic language and literature which shows the contribution of sub-continent scholars for Arabic and Islamic studies with quality of work.

Key words: aspects of miracles, Shaikh Hasan Ibn Ahmed, mutual connection of verses.

مقدمة:

لا شك أن القرآن كلام الله، وهو معجز بالمعنى الذي يفهم من إطلاق هذا اللفظ، ولهذا اختار العلماء أقوالاً عديدة في تحديد وجه الإعجاز، وسلكوا مذاهب شتّى في تعيين مراده. وهذا من عجائب القرآن التي لا تنقضي بل تفتح أمام العلماء والباحثين أبواب الاجتهاد في كشف أسرار القرآن. ومن وجوه الإعجاز حُسن نظم القرآن الذي اختاره الله في تأدية الرسالة الخالدة الباقية إلى قيام الساعة.

وهذا الوجه الذي حيّر و أدهش الفصحاء والبلغاء من العرب العرباء حتى أقرّوا بأن ذلك ليس من صنع البشر، بل الذين عارضوا الإسلام والرسول ﷺ اعترفوا بأن هذا الانسجام البسيط السهل للكلام له أثر خلّاب في النفوس والأسماع والقلوب؛ لأنهم ما كانوا يعرفون تأدية المعنى في صورته البديعة إلا بشعر منظوم أو نثر مسجّع، والقرآن جاء بطريق آخر لم يكن معهودا لديهم. وكيف لا يكون بهذه المثابة والمكانة وهو كلام رب العالمين؟! وقد قال تعالى: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [1]. ولذلك بذل العلماء الجهود الثمينة في هذا الجانب العلمي القيّم، وحاولوا كشف الإعجاز المخبوء في النظم القرآني من حسن ترابط الآيات وجودة نظم آياته وكلماته، كي يكون الكلام مرتبطاً بعضه ببعض، ففسّروا القرآن مراعين فيه مناسبات الآيات والسور. وكان من بين هؤلاء العلماء العظام، الشيخ المفسّر من بلاد شبه القارة الهندية جلال الدين مُحَمَّد

بن أحمد بن نصير الدين، المشهور بـ"حسن ابن نصير"، المتوفى سنة (982هـ)، صاحب كتاب "التفسير المحمدي". وهو تفسير متوسط الحجم، كثير العلم، غزير الفائدة، اعتنى فيه مؤلّفه ببيان معاني الآيات إجمالاً بطريق سهل، واهتمّ بربط الآيات القرآنية بعضها ببعض بأسلوب فريد وجيز معجب. فخلال هذا المقال أسلّط الضوء على مفهوم المناسبة، وكونها جهة الإعجاز القرآني، وأهمية هذا العلم وأراء العلماء فيه، وكذلك أذكر بعض العلماء الذين اهتمّوا بهذا الجانب العلمي، كما أقدّم لكم التعريف بالتفسير المحمدي وصاحبه بالإيجاز، وفي النهاية أذكر بعض النماذج التي تشير إلى حسن ترابط الآيات والسور في هذا التفسير.

مفهوم المناسبة وأهميته

يدلّ أصل هذه الكلمة على اتصال شيئ بشيئ. كما ورد في معجم مقاييس اللغة لابن فارس[2]، ولكن هذا الاتصال يتضمّن في داخله معنى المناسبة والمشاكلة في الشيئين المتصلين أو أشياء متصلة، كما صرّح بذلك صاحب "البرهان في علوم القرآن"، ما نصه.

"والمناسبة في اللغة المقاربة. وفلان يناسب فلاناً: أي يقرب منه، ويشاكله، ومنه النسيب الذي هو القريب المتصل كالأخوين وابن العم ونحوه، وإن كانا متناسبين بمعنى رابط بينهما، وهو القرابة. ومنه المناسبة في العلة في باب القياس الوصف المقارب للحكم؛ لأنه إذا حصلت مقاربته له ظن عند وجود ذلك الوصف وجود الحكم، ولهذا قيل: المناسبة أمر معقول إذا عرض على العقول تلقته بالقبول، وكذلك المناسبة في فواتح الآي وخواتمها".[3]

فاتضح مما ذُكر أن المناسبة بين الآيات القرآنية اتصال بعضها ببعض حتى تكون متّسقة المعاني ومنتظمة المباني كالكلمة الواحدة.

والمناسبة بين الآيات والترابط تعتمد على مذهب أن ترتيب الآي بعضها عقب بعض بتوقيف من النبي ﷺ حسب نزول الوحي، وكذلك نعلم قطعاً أن القرآن لم ينزل دفعة واحدة، بل نزل منجّماً، وذلك الترتيب مما له دخل في وجوه

إعجازه من بداعة أسلوبه، فلذلك نجد أن ترتيب آيات السورة الواحدة متعين بحيث لو نحوّلها عنه إلى ترتيب جديد لفقد حدّ الإعجاز الذي اختصّ به. ولما جمع القرآن في عهد أبي بكر لم ينقل عن الصحابة أنهم اختلفوا في ترتيب آيات من إحدى السور، فثبت من هذا كلّه أن ترتيب الآى بعضها ببعض توقيفي من لدن العليم الخبير. بل يمكننا أن نقول: إن اتساق الحروف والآيات والسور كلّه عن رسول الله ﷺ بأمر جبريل عليه السلام. فبهذا التفصيل اطّلعنا على أصل كبير في آي القرآن أنها مع لاحقتها تناسب في الغرض أو في الانتقال منه أو نحو ذلك من أساليب الكلام المنتظم المتصل. ويدلّ عليه وجود حروف العطف التي تفيد اتصال الكلام أو الكلمة بعضها ببعض، على سبيل المثال حرفا الفاء وثم اللتين وضعتا للتراخي وكذلك أداتا " لكن، وبل" اللتين للاستدراك والإضراب. ولا نعني بذلك تعيين اتصال الآية بما قبلها في النزول[4]، لأنه تمّ نزول قوله تعالى: ﴿غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ﴾ بعد قوله: ﴿لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ﴾. [5]

مرجع المناسبة وكيفيتها:

إن الآية إذا ذكرت تلو الآية فهي إما أن تؤدي المعنى المرتبط بالآية الأولى بحيث تكمل معناها، فارتباطها بالأولى أمر ظاهر، وإما أن تكون الآية الثانية مؤكدة أو مفسرة أو معترضة بنسبة الآية الأولى، فهذه الصورة تؤدي حسن الارتباط مما لاشك فيه. وكذلك يمكن أن لا يظهر هناك مناسبة ظاهرة من جهة المعنى بين الآيتين أو الآيات، بل تبدو كل منهما مستقلة عن الأخرى، فهي إما أن تكون معطوفة لكونهما مشتركتين في الحكم الإعرابي بالقرينة اللفظية، وإما أن لا تكون معطوفة، فلا بدّ حينئذ من رابط عام وقرينة معنوية تؤدي الترابط بينهما. وفي ما يلي بعض تلك الروابط.

الأول: التنظير، فإن العقلاء عادة يلحقون النظير بالنظير كما ورد في قوله تعالى: ﴿كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ

لَكَارِهُونَ﴾[6] بعد قوله: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ فالله تعالى يأمر نبيه ﷺ بمضي في شأن الأنفال والغنائم حسب أمره تعالى وإن كرهه الصحابة؛ لأنهم كرهوا قبل ذلك الخروج أيضاً.

الثاني: المضادة، لأن الأشياء تتبين عادة بأضدادها كما وقع في قول الله عزّ وجل في سورة البقرة: في سورة البقرة: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾[7] حيث عقب الله تعالى بذكر الكفار بعد ذكر المؤمنين لجامع التضاد بينهما.

الثالث: الاستطراد، وهو يكون بانتقال الكلام إلى معنى يلتئم بالمعنى الذي سيق له الكلام، ثم الرجوع إلى المعنى المسوق له الكلام بحيث لا يشعر القارئ هذا الانتقال لشدة الالتئام بينهما. كقوله سبحانه وتعالى: ﴿يَابَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ﴾[8]

ومرجعها – والله أعلم –إلى معنى ما رابط بينهما عام أو خاص عقلي أو حسي أو خيالي وغير ذلك من أنواع العلاقات أو التلازم الذهني كالسبب والمسبب والعلة والمعلول والنظيرين والضدين ونحوه أو التلازم الخارجي كالمرتب على ترتيب الوجود الواقع في باب الخبر وفائدته جعل أجزاء الكلام بعضها آخذا بأعناق بعض فيقوى بذلك الارتباط ويصير التأليف حاله حال البناء المحكم المتلائم الأجزاء.[9]

وقد قلّ اهتمام المفسرين بهذا النوع مع أنه علم شريف ينبغي أن يدرس بدقة وإمعان غير أن الإمام فخر الدين الرازي أكثر فيه وقال في تفسيره: معظم لطائف القرآن مودعة في الروابط والترتيبات. ونذكر من تفسيره ههنا نموذجاً يرشدنا إلى هذا الإمر، والإمام ناقش انسجام كلمات القرآن فيما بينهما، فأجاد في الموضوع وأفاد. وذكر هذا البحث العلمي تحت قوله تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ [10] وفيما يلي نصه:

"اعلم أن الأمانة عبارة عما إذا وجب لغيرك عليك حق فأديت ذلك الحق إليه فهذا هو الأمانة، والحكم بالحق عبارة عما إذا وجب لإنسان على غيره حق فأمرت من وجب عليه ذلك الحق بأن يدفعه إلى من له ذلك الحق، ولما كان الترتيب الصحيح أن يبدأ الإنسان بنفسه في جلب المنافع ودفع المضار ثم يشتغل بغيره، لا جرم أنه تعالى ذكر الأمر بالأمانة أولا، ثم بعده ذكر الأمر بالحكم بالحق، فما أحسن هذا الترتيب! لأن أكثر لطائف القرآن مودعة في الترتيبات والروابط."(11)

فالمناسبة تقتضي أن يبحث في كل آية ويفكّر في كونها متمّمة للآية الأولى أو مستقلة، ثم المستقلّة ما وجه مناسبتها لما قبلها؟ ففي هذا علم كثير يحتاج إلى تأمل وتدبر.(12)

وفي عصرنا الراهن أصبح الكلام في هذا االفن من الغزو الديني والفكري خاصاً حيث جعله بعض المستشرقين مدخلاً إلى التشكيك في أذهان المسلمين باتهام القرآن في كونه غير مترابط الظاهر في بعض المواضع، أو توجه الاتهام إلى علماء المسلمين بالقصور في هذا الجانب العلمي، فلذلك قام بعض العلماء بحفظ هذا الثغر العظيم الذي هاجم منه عدوّ الإسلام والمسلمين، وحاولوا أن يغطّوا هذا الثغر بما أفاض الله عليهم من علم وحكمة. وأوقف العلماء المسلمون حياتهم للذبّ عن الدين القويم. ومن بين هؤلاء العلماء عالم جليل سعيد حوى الذي فسّر القرآن الكريم مراعيا فيه هذا الجانب العلمي القيم، حيث يقول في مقدمة تفسيره:

"وسيرى قارئ هذا التفسير صحة سيرنا في هذه التغطية كلما قرأ صفحة جديدة من صفحات هذا التفسير.

هذه التغطية لهذا الموضوع كما أنها تلبي مطلباً من مطالب عصرنا، فإنها تروي ظمأ طلاب المعرفة والباحثين عن دقائق أسرار هذا القرآن، كما أنها تضع لبنة في صرح الحديث عن إعجاز القرآن ومعجزاته، كما أنها تجيب على تساؤلات

كثيرة من جملتها موضوع فواتح السور، سواء منها المصدرة بالأحرف الهجائية أو المصدرة بما سوى ذلك، ومن خلالها يزداد ترجيح بعض الجوانب التي وقع فيها خلاف كقضية: إن ترتيب سور القرآن توقيفي وليس اجتهاديا. فمع أن جماهير الأمة ذهبت إلى هذا، فإن هذا التفسير سيبرهن على هذا الموضوع بشكل عملي، كما أنه بإبرازنا الوحدة القرآنية، بإبراز الصلة بين سور القرآن والصلة بين الآيات في السورة الواحدة، سنأخذ الجواب على السؤال: لماذا لم تكن المعاني ذات المضمون الواحد موجودة بجانب بعضها؟ وسنجد لذلك حِكماً كثيرة، وسيرى القارئ لهذا التفسير أن هذا الترتيب ما بين سور القرآن على هذه الشاكلة التي رتبها الله عزّ وجل في كتابه، شئ به وحده تقوم الحجة على كل من يتصور أن هذا القرآن يمكن أن يكون بشري المصدر. وذلك من جانب ترتيبه فقط، فكيف بما سوى ذلك من عشرات الظواهر التي فى كل واحدة منها الدليل من خلال عشرات الأمثلة، على أن هذا القرآن يستحيل أن يكون بشري المصدر".[13]

فيمكننا أن نقول: إن هذا الموضوع من أهمّ الموضوعات الراهنة الفكرية لدى المسلمين عامّة والعلماء خاصّة. بل هو وجه الإعجاز في كلام الله تعالى على رأي بعض العلماء.

وجه الإعجاز في النظم القرآني

إنّ القرآن كلام الله، وهو معجز بالمعنى الذي يفهم من إطلاق هذا اللفظ، ولهذا اختار العلماء أقوالاً عديدة في تحديد وجه الإعجاز، وسلكوا مذاهب شتى في تعيين مراده. وهذا من عجائب القرآن التي لا تنقضي، بل تفتح أمام العلماء والباحثين أبواب الاجتهاد في كشف أسرارا القرآن. ومن وجوه الإعجاز حسن نظم القرآن الذي اختاره الله في تأدية الرسالة الخالدة الباقية إلى قيام الساعة. ولكن نكتفي ههنا بما ذكر صاحب الكتاب "مناهل العرفان" في باب حكم نزول القرآن منجما قولا بديعا ينشط له الأذهان وتطرب له الآذان. فقال: "الإرشاد إلى مصدر القرآن، وأنه كلام الله وحده، وأنه لا يمكن أن يكون

كلام مُحَمَّد ﷺ ولا كلام مخلوق سواه".

وتفصيل ذلك أن القرآن الكريم من أوله إلى آخره محكم السرد، متين الأسلوب، قوي الاتصال آخذ بعضه برقاب بعض في سوره وآياته وجمله، كأنه عقد فريد من ألفه إلى يائه يأخذ بالأبصار، نسقت جمله وآياته وجاء آخره مترابطاً بأوله، وأوله موافقاً لآخره. وكيف اتفق هذا التناسق المدهش والترابط الفائق مع أن نزوله لم يتمّ جملة واحدة، بل تمّ تنزيله مفرقاً حسب الوقائع والحوادث في أكثر من اثنين وعشرين عاما؟! فجوابه سهل بسيط نقدمه دليلاً ساطعاً على أنه كلام الواحد الديّان ﴿وَلَوْ كانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافاً كَثِيراً﴾"[14]. وإلا كيف يستطيع الخلق جميعا أن يأتوا بكتاب محكم الاتصال وقوي الترابط، مع أنه يخضع في التأليف لعوامل خارجية من وقائع الزمن وأحداثه، التي يجئ كل جزء من أجزاء هذا الكتاب تبعا لها!!!.

لا شك أن هذا الانفصال الزماني يستلزم عادة التفكك والافتراق دون الانسجام والايتلاف، بل لا يترك مساغاً للارتباط والاتصال بين هذا الكلام. فالقرآن الكريم قد خرق العادة في هذه الناحية حيث نزل منجما، ولكنه تم تنزيله مترابطا متناسقا، فذلك من برهان ساطع على أنه كلام رب العالمين. ومما يؤيد هذا الوجه من الإعجاز أن رسول الله ﷺ كان يقول إذا نزلت عليه آية أو آيات: "ضعوها في مكان كذا من سورة كذا". وهو ﷺ كان يتلقى هذا الوحي منجما، واستمر على ذلك طوال عمره حتى تم نظم القرآن بطريق مؤتلف منسجم متساوق[15].

وصار هذا النظم المبارك المنزل من الله سبحانه تحدياً للأعداء الفصحاء البلغاء، وأعلنوا سراً وعلانية بأنه ليس من كلام البشر. وكيف يمكن معارضته مع أنه من كلام رب العالمين ؟!. وكلام الملوك يعد ملوك الكلام. وقد قال تعالى في شأن كلامه: ﴿كِتابٌ أُحْكِمَتْ آياتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾[16]

العلماء الذين اهتموا بعلم المناسبة

حاول جماعة من المفسرين بعلم مناسبات الآيات في تفاسيرهم، وإن كانوا قليلين على اختلاف مشاربهم، فبعضهم اعتنوا بذكر المناسبة بين الآيات واهتم البعض بذكر الترابط بين السور القرآنية، ومع ذلك كله اختار كلّ واحد منهم مسلكاً سلكه، ونجدهم بين مقلّ ومكثر في هذا الأمر.

فيقول الإمام الزركشي: أول من أظهر ببغداد علم المناسبة كان الشيخ الإمام أبا بكر النيسابوري، وكان يعد ذلك نقصاً على علماء بغداد لعدم علمهم بالمناسبة. وكان من عادته إذا قرئ عليه الآية فيسأل المستمعين: لم وضعت هذه الآية إلى جنب هذه؟ وما الحكمة في وضع هذه السورة بعد هذه السورة؟ (17)

والإمام الزمخشري في تفسيره الكشاف، تعرّض لإعجاز الجمال القرآني وأسراره، فيقول عند الآية القرآنية: ﴿ فَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾(18) "فإن قلت: ما السبب في عطف هذه الآية بالفاء وعطف مثلها في أول السورة بالواو؟ قلت:السبب في ذلك أن هذه وقعت مسببة عن قوله وإذا ذكر الله وحده اشمأزت على معنى أنهم يشمئزون عن ذكر الله ويستبشرون بذكر الآلهة، فإذا مس أحدهم ضر دعا من اشمأز من ذكره، دون من استبشر بذكره، وما بينهما من الآي اعتراض". ثم يقول بعد ذكر النكات الأخرى القيمة: "وهذه الأسرار والنكت، لا يبرزها إلا علم النظم، وإلا بقيت محتجبة في أكمامها"(19) وكان للمناسبة في تفسيره حظّ وافر نظراً إلى مَنْ سبقه من المفسرين.

وكذلك قد مرّ ذكر الإمام الرازي، وقد أكثر في هذا الموضوع كلامه، وهو الذي صرّح بأن أكثر لطائف القرآن مودعة في حسن نظمه وبديع ترتيبه وجودة مناسبته.(20)

وكذلك يعد أبو حيان الأندلسي، من المفسرين المعدودين الذين اعتنوا بتناسب بين آيات وسور القرآن الكريم، وتفسيره " البحر المحيط " مليئ بالشواهد

على ذلك. وإليك نموذجاً من تفسيره ما يوضح هذا. فيقول تحت قول الله عزوجل: ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾[21] "ومناسبة قوله تعالى: وبشر لما قبله ظاهرة، وذلك أنه لما ذكر ما تضمن ذكر الكفار وما تؤول إليه حالهم في الآخرة، وكان ذلك من أبلغ التخويف والإنذار، أعقب ما تضمن ذكر مقابليهم وأحوالهم وما أعد الله لهم في الآخرة من النعيم السرمدي. وهكذا جرت العادة في القرآن غالبا متى جرى ذكر الكفار وما لهم أعقب بالمؤمنين وما لهم".[22]

ومن العلماء الذين اهتمّوا بذلك كثيرا هو العالم الجليل برهان الدين أبو الحسن إبراهيم بن عمر البقاعي المتوفى 885هـ الذي صنّف تفسيراً واعتنى فيه بتناسق النظم القرآني عناية بالغة وسماه "نظم الدرر في تناسب الآيات والسور" وقد أطنب في هذا الأمر حتى بلغ تفسيره اثنين وعشرين جزءاً. نقدّم لكم نصّاً من تفسيره حول المناسبة، فيقول:

"وأما مناسبة ما بعد ذلك للفاتحة فهو أنه لما أخبر سبحانه وتعالى أن عباده المخلصين سألوا في الفاتحة هداية الصراط المستقيم الذي هو غير طريق الهالكين أرشدهم في أول التي تليها إلى أن الهدى المسؤول إنما هو في هذا الكتاب، وبين لهم صفات الفريقين الممنوحين بالهداية حتى على التخلق بها والممنوعين منها زجراً عن قربها. فكأن ذلك أعظم المناسبات لعقيب الفاتحة بالبقرة، لأنها سيقت لنفي الريب عن هذا الكتاب ولأنه هدى للمتقين، ولوصف المتقين وما يجازون به بما في الآيات الثلاث ولوصف الكافرين الذين لا يؤمنون لما وقع من الختم على جواسهم والختم لعقابهم ليعلم أن ما اتصف به المتقون هو الصراط المستقيم فيلزم وما اتصف به من عداهم هو طريق الهالكين فيترك"[23]

ومنهم: شهاب الدين الخفاجي، في حاشيته على تفسير البيضاوي. فيقول في الآيات الأولى من سورة "المؤمنون". ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ

طِينٍ﴾[24] "مناسبتها لما قبلها أنه تعالى لما ذكر أوّلا أحوال السعداء عقبه بذكر مبدئهم ومآل أمرهم أو لما ذكر إرث الجنة عقبه بذكر البعث لتوقفه عليه أو لما حث على الصفات الحميدة عقبه بما يبعث عليه أو لما حث على عبادته وامتثال أوامره عقبه بما يدل على ألوهيته لتوقف العبادة عليه".[25]

ومن العلماء المعاصرين العالم سعيد حوّى الذي اهتمّ بهذا الجانب العلمي القيّم، فقال في مقدمة تفسيره:" إن الخاصية الأولى لهذا التفسير وقد تكون ميزته الرئيسية أنه قدم لأول مرة- فيما أعلم- نظرية جديدة في موضوع الوحدة القرآنية، وهو موضوع حاوله كثيرون وألفوا فيه الكتب ووصلوا فيه إلى أشياء كثيرة، ولكن أكثر ما اشتغلوا فيه، كان يدور إما حول مناسبة الآية في السورة الواحدة، أو مناسبة آخر السورة السابقة لبداية السورة اللاحقة، ولم يزيدوا على ذلك- فيما أعلم- هذا مع ملاحظة أن الموضوع الأول نادرا من استوعبه والتزم به في تفسير كامل للقرآن، وإذا التزم به فلم يكن ذلك على ضوء نظرية شاملة تحتوي مفاتيح الوحدة القرآنية. ولقد من الله علي منذ الصغر أنني كنت كثير التفكير في أسرار الصلة بين الآيات والسور". [26]

ومن بين هذه الأعمال القيمة في مجال المناسبة بين الآيات والسور القرآنية التفسير المحمدي للعالم من بلاد شبه القارة الهندية. وقد ألّفه الشيخ الفاضل الكبير حسن بن أحمد بن نصير الدين العمري أبو صالح حسن مُحَمَّد الكجراتي المتوفى 982هـ. ولد سنة ثلاث وعشرين وتسع مائة بأحمد آباد. الهند، وقرأ العلم بها من العلماء، وكان عالماً كبيراً بارعاً في الفقه والأصول والعربية والتصوف والتفسير، تولى الشياخة إحدى وأربعين سنة، وفي هذا التفسير للقرآن الكريم اجتهد في ربط الآيات بعضها ببعض. توفي لليلتين بقيتا من ذي القعدة، سنة اثنتين وثمانين وتسعمائة، وله تسع وخمسون سنة. [27]

عندما ينساق ذكر المفسرين في الهند، فيظن أكثر الناس أن تلك التفاسير لا تتجاوز إلّا أسماءها، وليست لها قيمة لدى العلماء الراسخين. لكن

هذا ظن خاطئ ورأي يتبني على قلة العلم أو عدمه عن تاريخ علماء هذه المنطقة؛ لأننا نجد من العلماء والباحثين من قام بتأليف حافل بذكر المفسرين في الهند، مثل: الدكتور زبيد أحمد الذي ألّف كتاباً باسم: إسهام الهند في الأدب العربي: (The Contribution of India to Arabic Literature) وأقام فيه بابا مستقلا بذكر العلماء الذين خدموا علوم القرآن، وذكر أربعا وسبعين كتابا في هذا الباب[28]. وعقبه دكتور سالم القدوائي وأضاف العدد إلى مائة وست وستين كتابا يتعلق بعلوم القرآن وتفاسيره. وقال: هذا، ولم أعثر على كثير من المكتبات الشخصية وإلا لزاد العدد.[29] فثبت من هذا كله أن من مسؤوليتنا تقديم أعمال قام به علماء بلادنا في مجال العلم والدين لكي يتعرف عليه العالم العربي والإسلامي فينتفع به، ويثري المكتبات العربية والإسلامية كذلك.

وكان هذا التفسير في صورة المخطوط في المكتب الهندي ببريطانيا إلا أن طلاب الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة قاموا بتحقيقه لنيل شهادة الماجستير، ولكن عملهم لم يطبع بعد. وقد فزت قبلهم على النسخة المصورة من المكتب الهندي عام 2016م، وكشفت عن ساق الجد لتحقيقه حتى تمت الموافقة على عنوان البحث من قبل لجنة الدراسة العليا بالجامعة إلا أنهم سبقوني في هذا المجال، فلم أستطع أن أقدمه بعد ذلك.

فهذا التفسير متوسط الحجم، بل أوجز بكثير بالنسبة إلى التفاسير الأخرى في هذا المجال، ولكنه مع ذلك كثير العلم، غزير الفائدة، اعتنى فيه مؤلفه ببيان معاني الآيات إجمالاً، وربط بعضها ببعض مع ذكر أسباب نزولها غالبا، وهو فريدٌ في اسمه ومنهجه.

وفي مقدمة كتابه كشف الستار عن سبب تسميته بذلك الاسم، فقال: "وكنت برهةً من الزمان متأملاً في ذلك، إلى أن ابتلانا الله سبحانه بالبلايا التي لم تسلّط إلا بشؤم معاصينا، فاستغفرنا ربنا عسى أن يتوب علينا، وتوسلنا إلى ذلك بهذا التفسير، كما أمرنا ربنا حيث قال: ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱبۡتَغُوٓاْ إِلَيۡهِ ٱلۡوَسِيلَةَ﴾ [30]،

فإنّه لا وسيلة عظمى من هذه، ولما كان جميع ذلك بالفيض النبوي؛ سميته بالمحمدي"[31].

وأما المنهج: فإنّه يظهر لنا مكانة المؤلف العلمية المتضلعة من خلال ربط معاني آيات القرآن ببعضها بأسلوب فريد وقول مفيد، وقد نبّه في المقدمة إلى أنه لم يسبقه أحد إلى هذا العمل الجليل؛ فقال:"ولما كان علم التفسير غامضاً لا يتحصّل إلا بفيض رباني، وقد حام حوله جمع من العلماء، وفازوا من ذلك بحظٍّ جسيم، ولكن لم يربط أحدٌ ممن اشتهر بذلك آية مع آية أخرى، مع أنّه أهم؛ فإنّه إذا وقع في كلام المصنفين والشعراء كلام أجنبي في البيّن يطعن طعناً كثيراً، وذا بحسب الظاهر كثير في القرآن، ولكن إذا تأمل حق التأمل يدرك وجهه ويكون جميع الآيات كالبنيان المرصوص»[32]

وقال في الخاتمة: «وقد اتفق إتمام هذا التفسير المشتمل على ربط كلِّ آيةٍ بآية اخرى ربطاً تامّاً، الموسوم بالتفسير المحمدي. . . »[33]

غير أنّه لم يُطلعنا على وجه التفصيل عن مراده بالربط بين الآيات ولا كيفية ذلك. وبحسب الاستقراء للكتاب، فإن قصد المؤلف من ذلك واضح، فهو يورد المعنى الإجمالي للآية غالباً ، ثمّ يربط ذلك المعنى بمعنى الآية التي تليها أو التي قبلها بحسب السياق، خاصة، ولا يخفى أنّ لاكتشاف المناسبات والروابط بين الآيات القرآنية فائدتين:

الأولى: فهم المعنى الحقيقي للآية؛ فهو يتوقف على اكتشاف الارتباط بين الآيات.

الثانية: اكتشاف مفاهيم أخرى هامّةٍ من خلال ذلك، كما في قوله رحمه الله تعالى عند تفسير قوله تعالى: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾، قال: «﴿ٱلۡحَمۡدُ﴾ الذي هو شامل للشكر ﴿لِلَّهِ﴾ باعتبار ذاتِه وصفاته وأفعالِه، ويُشير إلى كون الحمد هنا شاملاً للشكر قوله: ﴿رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾؛ يعني: أن الحمدَ لربوبيته التي هي من جهة ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾في الدنيا لا من جهة الإيجاب والاقتضاء، ومن جهة

﴿ٱلرَّحِيمِ﴾ في الآخرة؛ لأنّه الموصوف بوصف ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾.(34)

وممّا مضى يظهر لنا جلياً أنّ المؤلف لم يقصِد من الرّبط بين الآيات بيانَ أنواع الربط والتوسّع في أقسام العلاقة وضرب الأمثلة على ذلك، وإنّما عُني بتفسير الآيات تفسيراً إجماليّاً من خلال ربط معاني الآيات ببعضها، وذلك لجعل أجزاء الكلام بعضِها آخذاً بأعناق بعض، فيقوى بذلك الارتباط، ويصير التأليف حاله حال البناء المحكم المتلائم الأجزاء. ومن هنا تظهر قيمة هذا الكتاب العلمية، والتي سوف يأتي الحديث عنها لاحقاً بحول الله تعالى.

ومنهجه الذي سلكه ابن نصير رحمه الله في تفسيره "التفسير المحمدي"، يمكن تقسيمه في النقاط التاية:

1- يذكر ابنُ نصير عند بدء السورة: سببَ تسميتها، وعددَ آيها على العدّ البصري، وكونها مكية أو مدنية.

2- يورد شيئاً ممّا يتعلّق بالآية من أثرٍ دون إيراد أسانيدها، وقد يورِد بعضَ الآيات القرآنية ليفسّر بها.

3- يورد المعنى الإجمالي للجمل والكلمات القرآنية، مع بيانه للاشتقاقات اللغوية للمفردات فيها أحياناً.

4- يعتني بقضية التناسق بين الآيات القرآنية، وهذا الأمر الذي يدور حوله معظم تفسيره، .

5- يذكر الأقوال التفسيرية إجمالاً دون نسبتها إلى قائلها، ولا يذكر أدلتها ولا يناقشها غالباً.

6- يفسّر الآيات أحياناً تفسيراً فلسفيّاً.

7- يورد بعض الفوائد النفيسة، ولا يستشهد بالشعر إلا نادراً

8- يذكر بعض الإسرائيليات، دون تعقب عليها.

9- يهتمّ عادة بذكر أسباب النزول.

10- يذكر مذاهب العلماء الفقهيةَ وخاصة للحنفية والشافعية في معنى الآية

دون إسهاب، ولا يرجّح إلا نادراً.

11- يسلك مسلك الإيجاز.

12- يناقش علم المشابهات من الآيات، فيبحث في الآيات المتكررة مع اختلاف الكلمات فيها لأجل السياق.

13- يناقش قضية الأعراب، فيذكر غالبا قولا واحدا يختاره.

14- يورد المباحث البلاغية من المعاني والبديع خاصة.

بعض النماذج لمناسبات الآيات والسور في التفسير المحمدي

وبعد العرض من منهجه الذي اختاره في تفسيره أودّ أن أقتبس بعض النماذج من تفسيره، وأوضّح وجوه المناسبات بين الكلمات القرآنية وآياتها حسبما ذكرها المصنف رحمه الله تعالى واختارها؛ لكي يتمتع القارئ من أسلوبه مباشرة، ويذوق طعم حسن ترابط الآيات وطيب انسجامها وجودة اتساقها وروعة إيتلافها، فيسبح في فلك كلام البارئ ويغوص في بحر الحق ليحصل على أصداف الإعجاز المخبوؤة في سلك النظم القرآني، وليزداد تيقّنه بكونه من عند الله العليم الخبير. فيقول مفتتحاً بسورة البقرة:

"﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ. آلمّ﴾ المولّف منه ومن أمثاله، وفي تخصيص هذه الحروف تنبيه على أن هذا السورة اشتملت لما يهتم به من حيث إن هذه الحروف اشتملت على جميع المخارج، فكذا هذه السورة اشتملت على وصف الكتاب، وعلى وصف من أنزل لأجلهم ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ﴾ الكامل الذي أخبر به الكتب المتقدمة؛ لأنه ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ والطمانينة كمال لا يحذوه كمال. ولزوال الريب منه هو ﴿هُدًى﴾ عظيم ﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾ الذي شارفوا التقوى، والذين اتّقوا بالفعل على سبيل عموم المجاز[35]. وإنما اختصوا بالهداية ومزيدها؛ لأنهم ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ من هذه الأمة ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ من أهل الكتاب. وفي قوله:﴿هُمْ يُوقِنُونَ﴾ إشارة إلى أنّ أهل الكتاب قبل إيمانهم لم يكونوا موقنين

بها لقولهم: ﴿لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً﴾[36]، وأمثال هذه القول. قدم قوله ﴿بِالْآخِرَةِ﴾ للاهتمام؛ فإن الإيمان بها يجذب الإيمان بكل ما ينبغي أن يؤمن به، فاستجمعوا الأوصاف التي بها صفت بواطنهم، فصاروا كأنهم ﴿أُولَئِكَ ﴾ هم المجبولون ﴿عَلَى هُدًى﴾لا يكتنه كنهه؛ لأنه ﴿مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ دون من سواهم؛ إذ قد قيل لك ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ ﴾ مستو ﴿ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ﴾إنذارك وعدمه، فهم﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾؛ لأنه﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ في الدنيا، ﴿وَ﴾ ذلك بأن ختم على الجداول التي يمتلئ[37] بها حوض القلب، أعني جداول الحواس فختم ﴿وَعَلَى سَمْعِهِمْ﴾ الذي يحمل إلى القلب من بعيد، ويوصل إليه من أنواع شتّى مما يحمل الألفاظ، ﴿وَ﴾كيف لا يكون القلب مختوما مع أنه ﴿ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ ﴾ التي هي أعلى تلك الجداول من حيث إنها توصل إلى القلب من بعيد غاية البعد ﴿غِشَاوَةٌ﴾ عظيمة مستمرّة، ولكون الأبصار أعلاها أوردت الجملة الإسمية. ولما كانت الحاستان المذكورتان أعلى الحواس الخمسة من حيث إنهما يحسّان من بعيد اكتفى[38] بهما. ولا يقال: إن الشم أيضاً كذلك؛ لأنا نقول: سلمنا أنه معد ليوصل من بعيد، لكن لا من أنواع شتى، كالسمع والأبصار. فلا يفهمون ولا يسمعون ما به يتعظون، ولا يبصرون ما به يعتبرون ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ في الآخرة.

﴿وَ﴾ ليس الإيمان والكفر بمجرد القول، بل لا بدّ من الاعتقاد؛ فإنه ﴿مِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴾ أي بالمبدأ والمعاد ﴿ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾ لخلوّهم عن الاعتقاد. وإنما قالوا ذلك؛ لأنهم ﴿يُخَادِعُونَ اللَّهَ﴾ على زعمهم ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ فإنهم يغترّون بذلك، ولكنه لا يضرّهم؛ فإنهم ﴿ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ﴾؛ إذ وباله يعود إليهم ﴿وَ﴾ لكنّهم ﴿مَا يَشْعُرُونَ﴾ وكيف يحصل الشعور لهم مع أنهم ﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ جبلوا عليه ﴿فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا﴾ لخباثة أفعالهم ﴿وَ﴾ لذلك ﴿ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ وأصله ﴿ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾؛ فإن الكذب مبدأ الخباثة وأصلها ﴿وَ﴾ بلغ مرض قلوبهم وخباثة أفعالهم إلى أن

تصوروا[39] الفساد صلاحا؛ فلذا ﴿إِذَا قِيلَ لَهُمْ ﴾ بطريق النصيحة ﴿لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ وليس فينا غير الصلاح، فاعتقدوا ما فيهم من الخباثة والكفر صلاحًا، وما في غيرهم من الإيمان والأفعال الحميدة فسادا، وكأنهم قالوا ليس في غيرنا صلاح أصلا، فتصوّروا الصلاح فساداً، فقيل. ولكن تنبّه، يا مخاطب !ولا تغتر بما قالوا؛ فإنه ﴿ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ ﴾ لا يتجاوز الفساد إلى غيرهم، ﴿وَلَكِنْ﴾ قالوا ما قالوا؛ لأنهم ﴿لَا يَشْعُرُونَ﴾ لمرض القلوب ﴿وَ﴾ بلغ عدم شعورهم وجهلهم إلى أن لم يعرفوا حق الذين بلغوا في الإنسانية مرتبة صار من سواهم بالنسبة إليهم كالبهائم؛ ولذلك ﴿إِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ ﴾ ولكن لا يؤثر قولهم في قلب أحد، ولا يقبل قولهم؛ فإنه ﴿أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ﴾ ليس غيرهم سفيها حتى يقبل قولهم ﴿وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ لتكبّرهم؛ فإنه يعمي القلب.

﴿وَ﴾ لكمال سفاهتهم ﴿إِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ من الصحابة الكمل (رضوان الله تعالى عليهم) ﴿قَالُوا آمَنَّا﴾ وأحدثنا الإيمان كما أحدثتم ﴿وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ﴾ الكاملين الراسخين في الكفر ﴿قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ﴾ لم يحدث منا المخالفة معكم[40]، فنحن، كما كنّا، مستمرون على ذلك. وأما اختلاطنا بأهل الإسلام؛ فإنه ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ﴾ نخادع معهم؛ إذ هم سفهاء يخدعون بخداعنا. فهم وإن قالوا واعتقدوا ذلك، لكنّ ﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾ آنًا فآناً، استهزاء متجددا، ﴿وَ﴾ من استهزائه تعالى بهم أنه ﴿يَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ يتحيّرون، فلا يفقهون خباثتهم لينتهوا عنها.

ولعمههم ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا ﴾ واختاروا ﴿الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى﴾ الذي كانت فطرتهم عليه، ومع ذلك ظنوا أنهم في ربح من ذلك ﴿فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾" [41]

ومما تقدم تبين أسلوبه واتضح منهجه في تفسير الآيات وارتباط بعضها ببعض. وها أنا أدرس وأبيّن بعض الوجوه في تفسيره.

قال المصنف رحمه الله تعالى:"﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ﴾ الكامل" فذكر سبب كمال الكتاب وهو كونه رفيعاً عن الشبهات والريب، فقال: "لأنه ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ والطمانينة كمال لا يحذوه كمال". وتسبب هذا الكمال في أن صار هذا الكتاب مصدراً للإيقان والهداية، فقال" ولزوال الريب منه هو ﴿هُدًى﴾ عظيم ﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾ الذين شارفوا التقوى، والذين اتّقوا بالفعل على سبيل عموم المجاز"[42].

ثمّ بيّن سبب اختصاص المؤمنين بالهداية دون من سواهم لاتصافهم بالأوصاف المذكورة فيما بعد، فالآية الثانية كالسبب والعلة لما قبلها. وإلى هذا أشار في قوله:" وإنما اختصوا بالهداية ومزيدها؛ لأنهم ﴿ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾. . . "

نجد المصنف رحمه الله تعالى كثيراً ما يربط الآيات والجمل بالسببية والعلية لما قبلها. والآيات التالية خير شاهد لذلك.

﴿أُولَئِكَ ﴾ هم المجبولون ﴿عَلَى هُدًى﴾لا يكتنه كنهه؛ لأنه ﴿مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ دون من سواهم؛ إذ قد قيل لك ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ﴾ مستو ﴿ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ﴾إنذارك وعدمه، فهم﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾؛ لأنه ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ في الدنيا..."

ذكر المصنف رحمه الله تعالى السبب في كون الهداية التي جبل عليها المؤمنون خارجاً عن إدراك حقيقتها وكنهها، وهو أن هذه الهداية موهوبة من عند الله تعالى العلي الكبير.

وكذلك الحصر الوارد في قول الله عزّ و جلّ: ﴿ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ يشير إلى أن الفلاح مقصور عليهم دون غيرهم من المضادين الكفّار والمنافقين، وسبب ذلك أن الفلاح يترتب على سماع كلمة الحق والعمل بمقتضاها، والكفار لا يتأثرون بدعوة الحق لأن قلوبهم وأسماعهم مختومة، لا يصل إليها الحق. وقد أحسن المصنف الكلام في ذلك حيث رتّبه على ما قبله بالسببية، كما مرّ.

وفي قول الله عزّ وجلّ: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾. ربط الآية بما قبلها على طريق الاستطراد بإيراد الفائدة ببيان الإيمان الحقيقي والكفر الأصلي، فقال: ﴿وَ﴾ ليس الإيمان والكفر بمجرد القول، بل لا بدّ من الاعتقاد؛ فإنه ﴿مِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴾ أي بالمبدأ والمعاد ﴿ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾ لخلوّهم عن الاعتقاد".

والآية التالية ترتبط بما قبلها بكونها سبباً لماقبلها، وهو أن عدم إيمانهم لمخادعتهم. وكذلك في الآية التي تليها بحيث عدم شعورهم تسبب عن مرض في قلوبهم. وتتميماً لأثر المرض الذي سرى فيهم ذكر بعض أقوالهم، فالآيات متممة لما قبلها، وحسن بذلك طيب الانسجام وكمال الإيتلاف.

ونكمل البحث بإيراد السورة من نهاية القرآن لكي يتضح سلوك المصنف رحمه الله تعالى في أقصر السور القرآنية، فإليك سورة الإخلاص وتفسيرها:

سورة الإخلاص مكية، و هي أربع آيات، سميت بذلك إذ هي مسوقة للتوحيد الخالص.

"﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ. قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ فالضمير إما ضمير الشأن إشارة إلى تعظيم أمر التوحيد، أو عائد إلى ما سئلوا عنه، إذ روي أن قريشاً سألوا الرسول ﷺ، فقالوا: يا مُحَمَّد! صِفْ لنا ربك الذي تدعونا إليه فنزلت، أي الذي سألتموه هو الله الذي قد ثبت إلٰهيته وتقررت بدلائل قطعية، فإنه أحد بالوحدة الحقيقية التي لا تعدد فيها بوجه لا من حيث العدّ ولا من حيث الذات، إذ هو ﴿اللَّهُ﴾ الذي هو ﴿الصَّمَدُ﴾ المصمود إليه بالذات من "صمد" إذا قصد، فكل شيء يصمد إليه، وهو غني بالذات فلو لم يكن أحدا بالعدد لكان له جنس وفصل، إذ التعدد يقتضي المشاركة والامتياز فلا يكون صمداً بل محتاجاً إلى ما فيه الاشتراك وإلى ما به الامتياز، وبما ذكرنا انتفى التعدد الذاتي أيضاً، وعرف "الصمد" ولم يعرف "أحد" لأنهم كانوا يقرون صمديته ولم يقروا أحديته، وفي تكرير لفظ "الله" إشعار بأن الصمد مقتضى الإلهية فإذا ثبت صمديته فهو سبحانه ﴿لَمْ

يَلِدْ﴾ إذ بذلك تثبت الجزئية فينافي الصمدية، وذكر الماضي لوروده ردًّا على من قال: الملائكة بنات الله، وليطابق قوله ﴿وَلَمْ يُولَدْ﴾ لأنه لا يفتقر إلى شيء ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾أحد فإنه يقتضي الجنس والفصل، فنفى أقسام الأمثال الثلاثة فلذا ذكر "الواو" هنا. فمجوع نفي الأقسام المذكور ثبت بصمديته سبحانه".(43)

ففي هذه السورة ربط الآيات بأحسن وجه، فالآية الثانية كالدليل للأولى، يعني أن صمديته تعالى يقتضي أحديته، وهو الدليل عليه. ثمّ أتمّ الفائدة في تبيين معنى الصمدية، فأورد الآيتين الأخيرتين. فهما متلازمتان للصمدية، وبهذا التلازم حسن الارتباط.

هذه النماذج لمناسبة الآيات والكلمات فيما بينها. وقد أكثر المصنف رحمه الله تعالى الكلام في ذلك. ولكنه يقلّ من ربط السور فيما بينها، بل إنه لم يعتن بها كالاعتناء بمناسبات الآيات، إلا أني وجدت بعض النماذج لمناسبة السور فأشاركها ههنا. فقال المصنف رحمه الله تعالى في بداية سورة آل عمران:

"سورة آل عمران مدنية وآيها مئتان إنما سميت بآل عمران لأنها مسوقة لبيان قصة مريم وابنها وأمته وما سوى ذلك إنما أورد للتيميم أو لكونها مقدمة له كما سيظهر من بيانها. ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾. الم اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ﴾ ولما كان مبدأ هذه السورة ومبدأ البقرة في وصف الكتابِ بأنه كتاب كامل، شرع في كل منهما بـ آلـم، وأيضاً كل منهما مشحون بذكر بني إسرائيل."(44)

وكذلك ربط المصنف سورة الأعراف بسورتي البقرة وآل عمران للاشتراك في حروف المقطعات، فقال رحمه الله تعالى في بداية سورة الأعراف:

"﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ: المص﴾ قد سبق مثله، لما كانت هذه السورة ابتدأت بذكر الكتاب، وكونه ذكرى للمؤمنين كـ"البقرة" و"آل عمران"جعل مَفحتها كمفتحهما للتشارك في ذلك، ولما ذكر هنا نهي الرسول ﷺ عن ضيق الصدر زيدت الصاد تنبيهاً على ذلك".(45)

ومما تقدم من النماذج ظهرت أهمية هذا التفسير للعالم المتضلّع في علوم اللغةالعربية من بلاد شبه القارة الهندية. وهذا من أهم الشواهد على إسهام علماء هذه المنطقة في نشر العلوم الإسلامية والعربية للعالم.

الحواشي والهوامش

1. سورة النساء:82

2. في معجم مقاييس اللغة: النون والسين والباء كلمة واحدة. قياسها اتصال شيء بشيء. منه النسب، سمي لاتصاله وللاتصال به. تقول: نسبت أنسب. وهو نسيب فلان. ومنه النسيب في الشعر إلى المرأة، كأنه ذكر يتصل بها، ولا يكون إلا في النساء. تقول منه: نسبت أنسب. والنسيب: الطريق [المستقيم]، لاتصال بعضه من بعض. انظر: القزويني، الرازي، أحمد بن فارس بن زكرياء (المتوفى: 395هـ)، معجم مقاييس اللغة، المحقق: عبد السلام مُحَمَّد هارون. دار الفكر، عمان، 1399هـ - 1979م، ج5، ص424 -423.

3. الزركشي، أبو عبد الله بدر الدين مُحَمَّد بن عبد الله بن بهادر (المتوفى: 794هـ)، البرهان في علوم القرآن، المحقق: مُحَمَّد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية عيسى البابى الحلبي وشركائه، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ج1، ص 35

4. التونسي، بن عاشور، مُحَمَّد الطاهر بن مُحَمَّد بن مُحَمَّد الطاهر (المتوفى: 1393هـ) التحرير والتنوير ''تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد''،الدار التونسية للنشر، تونس، 1984م، ج1، ص 79. 80

5. سورة النساء، الآية: 95

6. سورة الأنفال، الآية:5

7. سورة البقرة، الآية:6

8. سورة الأعراف، الآية:26

9. راجع للتفصيل: السيوطي، جلال الدين، عبد الرحمن بن أبي بكر، (المتوفى: 911هـ)، الإتقان في علوم القرآن، المحقق: مُحَمَّد أبو الفضل إبراهيم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، 1394هـ/ 1974م، ج3، ص371-373

10. سورة النساء الآية:58

11. الرازي، فخر الدين، خطيب الري، أبو عبد الله مُحَمَّد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي، (المتوفى: 606هـ)، التفسير الكبير، دار إحياء التراث العربي، الطبعة، الثالثة، بيروت، 1420هـ. ج10 ص 110.

12. الزركشي، أبو عبد الله بدر الدين مُحَمَّد بن عبد الله بن بهادر (المتوفى: 794هـ)، البرهان في علوم القرآن، المحقق: مُحَمَّد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية عيسى البابى الحلبي وشركائه، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ج1، ص 35.

13. سعيد حوّى، (المتوفى 1409هـ)، الأساس في التفسير، دار السلام، القاهرة، الطبعة السادسة، 1424هـ، ج1، ص 27.

14. سورة النساء، الآية:82

15. الزرقاني، مُحَمَّد عبد العظيم، مناهل العرفان في علوم القرآن، المحقق: فواز أحمد زمرلي. دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الأولى، 1415هـ/ 1995م، ج1، ص: 52-54

16. سورة هود، الآية:1

17: الزركشي، أبو عبد الله بدر الدين مُحَمَّد بن عبد الله بن بهادر (المتوفى: 794هـ): البرهان في علوم القرآن. المحقق: مُحَمَّد أبو الفضل إبراهيم، بيروت، لبنان، دار إحياء الكتب العربية عيسى البابى الحلبي وشركائه، دار المعرفة، – الجزء 1 ص36

18. سورة الزمر، الآية:49

19. الزمخشري، جار الله، أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، (المتوفى: 538هـ)، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الثالثة، 1407هـ، ج 4، ص 134

20. الرازي، فخر الدين، خطيب الري، أبو عبد الله مُحَمَّد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي، (المتوفى: 606هـ)، التفسير الكبير، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الثالثة، 1420هـ، ج 10، ص 110.

21. سورة البقرة، الآية:25

22. الأندلسي، أبو حيان، مُحَمَّد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان أثير الدين، (المتوفى: 745هـ)، البحر المحيط في التفسير، المحقق: صدقي مُحَمَّد جميل، دار الفكر، بيروت، 1420هـ، ج 1، ص 177

23. البقاعي، بن عمر بن حسن الرباط بن علي بن أبي بكر (المتوفى: 885هـ)، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، ج1، ص 78

24. سورة المؤمنون، الآية:12

25. الخفاجي، شهاب الدين أحمد بن محمد بن عمر المصري الحنفي (المتوفى: 1069هـ)، حَاشِيةُ الشِّهَابِ عَلَى تفْسيرِ البَيضَاوِي، الْمُسَمَّاة: عِنَايةُ القَاضِى وكِفَايةُ الرَّاضِى عَلَى تفْسيرِ البَيضَاوي، دار النشر، دار صادر، بيروت، ج6، ص 318

26. سعيد حوّى، (المتوفى 1409هـ)، الأساس في التفسير، دار السلام، القاهرة، الطبعة السادسة، 1424هـ، ج1، ص 21

27. الحسيني، عبدالحي بن قمر الدين (العلامة)، نزهة الخواطر والهجة المسامع والنواظر، دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد، دكن، 1955م، ج 4، ص 87

28 .The contribution of India To Arabic Literature to 1857 M. G. Zubaid Ahmad, Sh. Muhammad Ashraf, (From Ancient timeKashmir Bazar – Lahore. Addition 1946 and 1967)

29. قدوائي، محمد سالم (الدكتور): *هندوستاني مفسرين اور ان كى عربى تفسيريں*، دائرة معارف إسلامي، لاهور، الطبعة الأولى، 1993م، ص 11–12

30. سورة المائدة، الآية: 35

31. أبو صالح محمد حسن، حسن بن أحمد الكجراتي: التفسير المحمدي، مخطوط، ص 2

32. المرجع السابق. ص 2

33. المرجع السابق. ص 483

34. المرجع السابق. ص 2

35. "استعمال اللفظ في معنى مجازي، يندرج تحته المعنى الحقيقي، وهو الذي يسمونه عموم المجاز". انظر. الشوكاني، محمد بن علي بن محمد (المتوفى، 1250هـ)، إرشاد الفحول إلي تحقيق الحق من علم الأصول: دار الكتاب العربي، الطبعة الأولى، 1419هـ، ج1، ص80

36. سورة البقرة 2، الآية: 80

37. ورد في المخطوط "يمتلاء" بالهمزة في الأخير، والصواب ما أثبتناه في المتن.

38. ورد في المخطوط "اكتفا" بالألف في الأخير، والصواب "اكتفى" بالياء، كما أثبتناه.

39. ورد في المخطوط كلمة "تصوّر" بصيغة الواحد، والصواب "تصوّوا"بصيغة الجمع لاقتضاء السياق.

40. ورد في المخطوط كلمة "معلم"، والصواب "معكم" لاقتضاء السياق.

41. المرجع السابق. ص 3

42. "استعمال اللفظ في معنى مجازي، يندرج تحته المعنى الحقيقي، وهو الذي يسمونه عموم المجاز". انظر. الشوكاني، مُحَمَّد بن علي بن مُحَمَّد (المتوفى، 1250هـ)، إرشاد الفحول إلي تحقيق الحق من علم الأصول، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الأولى 1419هـ، ج1، ص 80

43. المرجع السابق. ص 283

44. المرجع السابق. ص 47

45. المرجع السابق. ص 129

* * * * * *